العلاقات السياسية بين الليبيين والدولة الفرعونية القديمة
(2780–2263 ق.م)

أ. وليد عبد السيد سرار
جامعة مصراتة/ كلية الآداب
W.srar@art.misuratau.edu.ly

ملخص البحث

يناقش البحث ويدرس بعض معلومات الآثار والمصادر الفرعونية التي تعود إلى فترة الدولة القديمة منذ عصر الأسرة الثالثة حتى زمن الأسرة السادسة، ويحللها ويفسرها للوصول إلى مدى اتصال الليبيين بوادي النيل الأدنى وأثرهم فيه خلال الفترة المذكورة، مع استيضاح علاقتهم بالسلطة الفرعونية، فبداية من الأسرة الثالثة وما ذكر فيها من تمرد لليبيين في الدلتا ودلالات ذلك تاريخياً، ثم حروب الفرعون سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ضدهم أسبابها ونتائجها، انتقالاً بعد ذلك إلى حروب الفرعون ساحورع وغيره من ملوك الأسرة الخامسة وكيف ولماذا كانت معاركهم وتناحرهم مع الليبيين، وصولاً إلى الأسرة السادسة وعلاقتها السلمية مع الليبيين وتفسير أحداثها، وكل ذلك وعبر المراحل التاريخية المذكورة كان يتخلله علاقات اجتماعية تركزت في الزواج بين الفراعنة وبعض سليلات ملوك الليبيين وأمرائهم، وهل كان ذلك زواجا سياسيا أم أنه ضرورة أنتجتها العلاقات الوثيقة بين الطرفين، وأيضاً ما نتج عن انتشار الليبيين بوادي النيل من انتشار لثقافاتهم وتراثهم الحضاري القديم سواءً في ما تعلق بحياتهم الدينية وعباداتهم مع بعض تقاليدهم وسبل عيشهم .

Political relations between the Libyans and the ancient Pharaonic state

Research topic

The research discusses and studies some of the archeological and Pharaonic sources that date back to the period of the ancient state from the age of the Third dynasty until the time of the Sixth Dynasty. And analyze and explain them to get to how Libyans were connected to the Lower Nile Valley and their effect ın ıt during that period, with clarifıcatıons of their relations with the Pharaonic authority. Beginning with the Third Dynasty and what was mentıoned of the rebellion of the Libyans in the Delta and implications of that historically, then the wars of pharaoh Sinfro of the Fourth Dynasty against them causes and consequences.

Then moving to the wars of the Pharaoh Sahur and other kings of the Fifth Dynasty and how and why their battles and their contradictions with the Libyans. Up to the Sixth Dynasty and its peaceful relationship with Libyans and explain its events.

And all of that through the historical stages mentioned was permeated by the social relations focused on marriage between the pharaohs and some descendants of the Libyan kings and their princes , and whether this was a political marriage or a necessity created by close relations between the two parties , and also what resulted from the spread of the Libyans in the Nile Valley by the spread of their culture and heritage of ancient civilization both in terms of their religious life and their worship with some traditions and livelihoods .

مقدمة:

تعد الآثار الفرعونية ووثائقها الباقية المصدر الوحيد لدراسة تاريخ الليبيين وحضارتهم إبان الفترة التي تسبق مجئ الإغريق لليبيا، وهو ما يدعو إلى البحث في أخبار تلك المصادر ونقوشها وما ورد فيها من معلومات للوصول إلى فهم حياة الليبيين وحضارتهم خلال الفترة المعاصرة للدولة الفرعونية بمختلف عصورها، وخاصةً أن أغلب فترات التاريخ الفرعوني شهدت اتصالاً بين الليبيين وسكان وادي النيل الأدنى وسلطته الحاكمة ومنذ العصور الحجرية الأولى، ناهيك عن نتائج ذلك الاتصال والاحتكاك وما ترتب عليه من تأثير وتأثر بين الطرفين في مجالاتٍ حضارية مختلفة، وهو ما يطرحه هذا البحث من خلال دراسة العلاقات بين الطرفين من الناحيتين السياسية والاجتماعية في عصر الدولة القديمة، وتفسير الوثائق والنقوش التي عُثر عليها وتحليلها ومحاولة استنطاق أحداثها وربما الوصول إلى شئ من أثر الليبيين في حضارة الوادي خلال تلك الحقبة، مع مدى علاقتهم بفراعنتها، وهو ما يجعل لهذا الموضوع أهميةً تدعو للتقصي والتحقيق في ظل غموض هدف الليبيين من الاتجاه الدائم حينها نحو وادي النيل وخاصةً توفر الموارد الاقتصادية لديهم كما تذكر المصادر نفسها، وأيضاً يبدو للأمر احتمالاتٍ عدة تُستنتج من خلال ظروف الليبيين وحياتهم القديمة ودورهم السياسي والاجتماعي داخل وادي النيل، وهذه الإشكالية يحاول البحث كشف أسبابها ونتائجها عبر عناصره ومصادره المختلفة.

توطئة :–

إن تقسيم الحضارة الفرعونية إلى ثلاث دول هو من اجتهاد العلماء والمؤرخين؛ ذلك لأن مصدرهم في تقسيم الأسرات من بدايتها إلى آخرها وما يتعلق بالتاريخ السياسي للفراعنة كان مانيتون (*)، الذي لم يجعل هذه الأسر إلا تسلسلاً لحكام وادي النيل وأعمالهم من دون تقسيمهم إلى دول أو حضارات من ناحية التطور والتقدم المادي، ولم يَشُد عن تقسيم علماء المصريات للتاريخ السياسي للفراعنة إلى ثلاث دول مختلفة إلا بعض الباحثين الذين جعلوا الأسرات الأولى (1، 2) داخل الدولة القديمة، وهذه الأخيرة جعلت بدايتها بالأسرة الثالثة وذلك للطفرة العمرانية والتطور الحضاري الذي حدث منذ بداية الأسرة الثالثة، ولذلك عرف بعصر بناة الأهرام، كما تعرف هذه الفترة أيضاً بالعصر المنفي نسبة إلى مدينة (منف (**)) التي أصبحت العاصمة السياسية للدولة في هذا العصر، (**توفيق، 1990م، ص73**) ويمتد هذا العصر (الدولة القديمة) ببداية الأسرة الثالثة في (2780 ق.م) حتى نهاية الأسرة السادسة سنة (2263 ق.م)، مع وجود اختلاف بين المؤرخين في تأريخ هذه المرحلة أيضا، (**الأنصاري، 1991م، ص25**).

ولقد تعددت الآراء حول أسباب بدايات كل أسرة جديدة فوضع المؤرخون التساؤلات عن الفرضيات التي دفعت إلى دخول البلاد في عصر جديد عند مانيتون – ناهيك عن الأرقام

(*) هو كاهن مصري اشتهر بعلمه ومعرفته للتاريخ وملماً باللغة الإغريقية، عاش في زمن بطليموس الثاني الذي حكم مصر بين عامي 284 – 246 ق.م، الأنصاري، ص41، ويعتقد أن بطليموس هو من طلب من مانيتون كتابة تاريخ مصر منذ فجره حتى زمنه، ولقد ضاع ما كتبه مانيتون ولكن وصلت منه شذرات بسيطة، وإليه يرجع الفضل في تقسيم تاريخ مصر وحكم الفراعنة إلى ثلاثين أسرة، وهو تاريخ سياسي في أغلب أخباره، أديب، 2000م، ص 744.

(**) منف أو منفيس بالإغريقية: هي مدينة الجدار الأبيض، وأُطلق عليها في عصر الأسرة السادسة (2420–2280 ق.م) اسم من نفر الذي حرفه الإغريق إلى ممفيس والعرب إلى منف، وهي تقع عند قرية ميت رهينة بمركز البدرشين على بعد 25 كيلومترا من الجيزة، وهي بقايا أثرية في الوقت الحاضر، يُرجع هيرودوت بناءها إلى أول ملوك الأسرة الأولى ومؤسس الدولة الفرعونية الملك منا أو مينيس، ويرى بعض المؤرخين أنها بنيت لكي تكون حصناً عسكرياً لمراقبة أهل الشمال (الدلتا) الذين أخضعهم ملوك الجنوب، واستمرت عاصمة للدولة الفرعونية منذ الأسرة الثالثة حتى الثامنة ثم تغيرت الحاضرة الفرعونية عبر مدن أخرى، ولكن استمرت أهمية منف السياسية والإدارية والدينية والعسكرية حتى مجيء المسيحية. انظر، أديب، ص776.

الأسطورية التي يضعها كتواريخ لبدايات ونهايات الأسرة – فرأى بعض الباحثين أن بداية عصر أسرة جديدة كان يعتمد على دخول جنس جديد داخل الأسرة الحاكمة؛ لأن الملكية في وادي النيل اعتمدت على نقاء الفرعون من تداخل عنصر جديد في الأسرة المالكة من الأب والأم، ولذلك تجدهم أحياناً ينصبون النساء اللواتي يمنحن حق ولاية العهد لعدم وجود وريث شرعي من الذكور، وعند زواج هذه الملكة من غير البيت الحاكم ينتقل التاريخ إلى أسرة جديدة، أو عندما يصل إلى حكم الدولة أحد أبناء الفرعون من زوجة غير شرعية وليست من الدم الملكي الحاكم أو أبناء إحدى المحضيات اللواتي كنا كثر في عرش الفراعنة، فهنا تدخل الدولة في حكم أسرة جديدة؛ لأن الدم الذي يجري في عروق الفرعون الجديد ليس من الأسرة السابقة، ولعل تعدد الزوجات والمحضيات جعل للفراعنة او بعضهم أعداداً كبيرة من الأبناء والذي أدى في بعض العصور إلى صراع على السلطة يدخل البلاد في أتون الفوضى أحياناً مع ما يحصل من صراعات وثورات دينية وسياسية تنم على اضطهاد أو ظلم ينتج عنها وصول عائلة حاكمة جديدة إلى عرش الفراعنة (**بدوي، 1955م، ص136؛ جريمال،1993م، ص67–68،71؛ إبراهيم،1957، ص102–103**).

وعلى أية حال فإن هذه المرحلة من تاريخ وادي النيل وحضارته الفرعونية شهدت تطورات عظيمة في شتى المجالات الثقافية والاقتصادية و العمرانية والحضارية والسياسية أبرزت شخصية الحضارة بوادي النيل فتفوقت على مثيلاتها في الشرق الأدنى وبلغت أقصى درجات التحضر بالعصور القديمة (فخري، 1995م، ص 91–92)، فما هي آثار وعلاقات الليبيين بهذه الحضارة في تلك المرحله ؟

العلاقات زمن الأسرتين الثالثة والرابعة :–

إن قلة آثار الأسرة الثالثة ما خلا الملك المؤسس زوسر(*) وأحداث عصره تجعل موضوع البحث حول الأثر الليبي في تلك الفترة صعباً، وذلك لندرة الدلائل الأثرية، سواءً المتعلق منها بالليبيين أو بغيرهم، وحتى الثورة التي جاء ذكرها عند مانيتون والتي قام بها الليبيون والذين وضعوا أسلحتهم بشكل مفاجئ أرجعه الى تغير في شكل القمر (**بايتس، 2015، ص209**)، فهل وقعت هذه الثورة أو التمرد الليبي داخل الدلتا (**) أو خارجها أم إنها استمرار للمعارضة الليبية لحكم ملوك الجنوب للدلتا(***)؟ غير أن الغموض حول بداية أسرة جديدة ونهاية سابقتها لا يجد له المؤرخون سبباً، وخاصة أن زوسر هو أحد أبناء آخر ملوك الأسرة الثانية (توفيق، ص73–74) خع سخموي(****) واحتمال تولي ملوك آخرين للسلطة قبل ولايته وهم في نفس الوقت إخوة له (جريمال، ص79)، ذلك كله لا يجد له الباحثون سبباً سوى اعتبار زوسر من أم غير شرعية أو أم ثانوية ارتبط بها أبوه الملك خع سخموي بزواج سياسي؛ لأنها كانت من سكان الشمال (**مهران، ج2، 2002م، ص106–107؛ توفيق، ص73–74**)، وهي طريقة اتبعها الملوك الأوائل من الأسرة الأولى والثانية لاسترضاء أهل الشمال وكسب ودهم وطاعتهم (**امري، 1967م، ص36؛ جريمال، ص 61–63؛ سليم، عبد اللطيف، 2010، ص 162–163**)، ولعله السبب الذي جعل الملك زوسر يتخذ من تلك المدينة بالشمال عند

(*) الفرعون زوسر أو جسر أو نترخت، سجلته بردية تورين (وهي إحدى قوائم الملوك وحولياتهم التي ترجع إلى عصر الدولة الحديثة ومحفوظة بمتحف تورين بإيطاليا) بالحبر الأحمر لتمييزه عن غيره من الفراعنة لأهميته وقدسيته عند سكان الوادي، وحكم هذا الفرعون مدة تسعة عشر عاماً، وهو صاحب أول هرم بوادي النيل والمعروف بالهرم المدرج بسقارة، أديب، ص499.

(**) جاءت هذه التسمية لأنها تشبه الحرف الإغريقي "Δ". انظر، كروفت، د.ت، ص14.

(***) شهدت فترة الأسرتين الأولى والثانية الكثير من الاضطرابات والحروب بين الشمال والجنوب اعتبرها الباحثين نوعٌ من المعارضة وعدم قبول سكان الشمال لحكم ملوك الجنوب، انظر: برستد، 1999م، ص 34، 44؛ باقر، 2011م، ص 42 ؛ مراجع، 1989م، ص 49 – 53 .

(****) سابع فراعنة الأسرة الثانية أو ثامنهم؛ وهو الملك جوزيفا أو نفركاسكر في قائمتي سقارة وتورين، ذكره مانيتون باسم سيزوخريس، كان عصراً مليئاً بالحروب الأهلية وصراع مملكتي الشمال والجنوب، حيث استطاع القضاء عليها عند انتصاره على الليبيين المسيطرين على مملكة الشمال، انظر: امري، 1967م، ص 91–92 ؛ جريمال، ص 69–71.

رأس الدلتا وهي منف عاصمة لحكمه واستمرت كذلك حتى زمن خلفائه، ولذلك أطلق المؤرخين على عصر الدولة القديمة اسم عصر حكام منف أو الدولة المنفية (**علي، 2001م، ص 326**)، ومن المحتمل أن الثورة التي قام بها الليبيون بالدلتا في بداية هذه الدولة كانت في أيام إخوته الذين لم يستمر حكمهم طويلاً وتذكرهم الآثار قبل زوسر، وبمجيء هذا الملك ذو الأصول الشمالية خمدت تلك الثورة وأصاب أهالي الدلتا المعارضين من الليبيين الرضا عن هذا الملك الذي لهم فيه دم ونصيب من أمه الشمالية نب ماعت حب(*).

وهكذا تنتهي أخبار الأسرة الثالثة لقلة الآثار حول أحداث بقية أيامها وسنين حكامها الذين ليس لهم من ذكر سوى في قوائم الملوك.(**)

وتدخل البلاد في عصر أسرة جديدة يبدأ تاريخها على الآثار بالملك سنفرو(***) مؤسس الأسرة الرابعة 2680-2560 ق.م (**فخري، 1995م، ص101–102**)، ومن بين أعماله حملة على الليبيين تم ذكرها على حجر بالرمو (**سليم، 2000م، ص95**) جاء منها بغنائم كثيرة بلغت (13100) رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة والأسرى (11000) (**إبراهيم، ص 126**) فهل هذه الأرقام صحيحة؟ وإلى أي شيءٍ ترمي؟ لقد تكررت الأعداد الضخمة لنتائج حروب الفراعنة ضد أعدائهم وخاصة التحنو(****) الليبيين، ويُلاحظ ذلك منذ

(*) هي زوجة خع سخموي آخر ملوك الأسرة الثانية، ويبدو أنها غير شرعية لذلك بدأ مانيتون بابنها أسرةً جديدة، ودليل هذا أنها لم تتخذ ألقاباً ملكية بل اتخذت لقباً واحداً هو أم أبناء الملك، لأنها أنجبت الذكور دون زوجاته الشرعيات اللواتي أنجبن الإناث فقط، ولعله اعترف بها زوجةً شرعية في آخر حكمه، توفيق، ص 73-74؛ سليم، عبداللطيف، 1996م، ص 99-100.

(**) إن المعلومات المتوفرة حول تاريخ الأسرة الثالثة أقل بكثير من تلك التي تتحدث عن عصري الأسرتين الأولى والثانية، وقد ذكرت قوائم الملوك العديد من فراعنتها الذين رأي بعض العلماء ترتيبهم على النحو التالي: نب كا، جسر، سانخت، خع با، نفر كا، حو أو حوني، جريمال، ص79-83. قارن؛ الأنصاري، ص25.

(***) سنفرو (نب ماعت)، استطاع تأسيس أسرة جديدة في حكم الوادي عند زواجه من ابنة آخر ملوك الأسرة الثالثة (حوني)، عُرف بنشاطه العسكري. ويُعتقد أن حكمه دام (29 سنة) وارتبطت بعض أخباره بالنساء، ويقال أنه تزوج من ابنته لأول مرة في تاريخ فراعنة وادي النيل، وهو أول الفراعنة الذين تركوا بناء المقابر بالجنوب وكان ميولهم للفيوم والشمال من الوادي، وقام ببناء هرمان من الحجر، إبراهيم، ص125-127؛ أديب، ص519-520؛ بوزنر، ص192-193.

(****) التحنو، أول القبائل الليبية التي يأتي ذكرها في الآثار الفرعونية، تميزوا عن غيرهم من مواطني وادي النيل منذ فجر التاريخ، لهم ملامحهم التي ظهرت على أغلب قبائل الليبيين، مثل طول القامة وجديلة الشعر الجانبية والتحلي بريشة على الرأس واللباس

بداية الوحدة السياسية بوادي النيل وتتكرر الأعداد الكبيرة وتزيد ضخامتها بالعصور اللاحقة أيضاً (سرار،2015م، ص34–35، 85–86)، ولعله زيادة في حجم العمل وبحثاً عن الشهرة وإلباس الملك وعصره بإطار القوة والعظمة وإرهاب الأعداء، فأصبحت هذه الطريقة سُنَّة اتبعها الملوك أو الفراعنة بوادي النيل حتى أنهم استنسخوا هذه الأعمال عن غيرهم من أسلافهم وربطوها بأنفسهم في بعض العصور وحتى في أيام هذه الدولة القديمة كما حدث مع الأسرتين (**الخامسة2560–2420 ق.م والسادسة 2420–2280 ق.م**[*]) (**فخري، 1995م، ص130، 148**) وربما كانت تلك الأعداد حصيلة لأعداء الملك أو المعارضين له مع أملاكهم أو قطعانهم التي يستحوذ عليها الملك بعد معاقبتهم وضربهم في إقليمهم، وليست غزوة خارجية قام بها الملك خارج مناطق نفوذه غرب سهول الوادي الضيق، وخاصة أن عصر الدولة القديمة كان عصر تأسيس داخلي وتطور حضاري ولم تشهد الدولة توسع خارجي وانحصرت علاقاتها بالجوار في إطار التجارة والاتصال السلمي (**مري، 1957م، ص49–50؛ إبراهيم، ص115، 194**)، وفسر بعض المؤرخين هذه الحملة ضد الليبيين بأنها كانت حملة على واحة الفيوم استطاع الملك مد نفوذه عليها، وهو ما يعني أنها سابقاً كانت خارج سلطته وكان إنجازه ضمها إلى حكمه دون التوسع فيما بعدها، أو أنها تعرضت لتوسع ليبي أو ثورة ليبية داخلها ضد حكمه، أو لأسباب أخرى جعلته يقوم بحملة فيها لردها تحت نفوذه وسلطانه[**].

المميز كقراب العورة والأشرطة المتقاطعة والعباءة الفضفاضة وغير ذلك، بوزنر، ص294؛ الموسوعة المصرية، ص172. ولم تحدد الآثار الفرعونية مكان هؤلاء الليبيين الذين تكررت معاركهم وحملات الفراعنة عليهم لكن من خلال البحث ومقارنة آراء المؤرخين نلاحظ أنهم يجعلون موطنهم بين الدلتا والضفة الغربية للنيل والواحات حتى الجنوب، ولعل أعداد الغنائم والأسرى التي تتكرر في مصادر الفراعنة وأخبارهم تنم على مبالغة في تلك الأرقام أو أنها ذات دلائل مبهمة تحتمل تفسيرات كثيرة.

(*) والمقصود هنا ما حدث مع نقوش الفرعون ساحورع والتي استنسخت صورها ورسوماتها بشكل كامل بعد مائة سنة في معبد هرم الفرعون بيبي الثاني آخر ملوك الأسرة السادسة، وبعد ألف وثمانمائة سنة تكرر المنظر نفسه على جدران معبد الفرعون طهارقا النوبي رابع ملوك الأسرة الخامسة والعشرين 715–663 ق.م مما يؤكد أن هذه الانتصارات كانت مسخرة لهؤلاء الملوك على مر العصور مما يحمله الانتصار على الليبيين من أهمية في تاريخ الفراعنة، وأنه أمر مشكوك في صحته أو نتائجه، مراجع، ص58.

(**) لم تدخل واحة الفيوم وغيرها من الواحات في سلطة الفراعنة إلا في عصر الأسرة العشرين (1195–1080 ق.م) وقبل ذلك كانت تحت حكم الليبيين الذين دفعوا الجزية في بعض العصور للدولة الفرعونية والتي كانت لتأخر الجزية أو تقطعها على الفرعون، مراجع، ص57–58.

والغريب وجود تأويلات لهذه الحملة بأنها على ليبيا؟ من قبل بعض الباحثين (علي، ص486)[*]، فما المقصود بليبيا هنا؟ وأين موقعها وحدودها؟ وهل كانت أيامها توجد حدود سياسية قسمت المنطقة إلى دول أو غير ذلك؟ أليست ليبيا المعروفة حينئذٍ هي تلك المناطق الواقعة من الضفة الغربية لوادي النيل وتقطنها قبائل ليبية وتنتشر فيها ثقافتها حتى المحيط الأطلنطي؟

يؤكد هيرودوت[**] عند كلامه عن إنشاء مدينة منف على يد الملك مينا[***]، وأنه غيّر مجرى النهر من الأراضي الليبية شرقاً بين الجبال حتى يتسنى له بناؤها وإعمارها (**هيرودوت، ك2، 1987، ف99، ص211–212**)، مما يعني أن الأراضي الليبية كانت تمتد من غربي الوادي مباشرة؛ لأنه من المؤكد لم يقصد بأن النهر كان يجري داخل الأراضي الليبية بالمنظور الحاضر، وخاصة أنه ينقل أخباراً وأحداثاً من المصريين أنفسهم عند زيارته لوادي النيل الادنى سنة 450 ق.م (بوزنر، 1996م، ص350)، ناهيك عن استمرار وجود الليبيين في هذه الواحة خلال عصر الأسرة الخامسة والتي تذكر آثارها أن التحنو كانوا يسيطرون على إقليم جنوبي مدينة منف وانتشرت فيه ثقافتهم مع انتشارهم، وسوف يأتي الحديث عن ذلك في حينه.

كما توجد آراء أخرى حول هذه الحملة، منها انها لم تكن حملة تأديبية ضد معارضين لحكم سنفرو فقط، بل كانت أيضاً فرضاً للهيبة والسلطة على غيرها من الأقاليم وخاصة الفيوم (جريمال، ص 84)، والتي كانت إبان هذه الفترة تحت سلطة الليبيين (بايتس، ص 60؛ مراجع، ص58)، ويرى آخرون أن وادي النيل شهد انقساماً جديداً بين الشمال والجنوب بعد

(*) وهو يقول أن هذه الحملة كانت على ليبيا والأصح أن يذكر اسم القبيلة التي هاجمها هذه الفرعون كما جاء في حوليات (حجر بالرمو) وهم (التحنو)، سليم ، ص95.

(**) ويجعل الدلتا جزءاً من ليبيا وجزءاً من بلاد العرب في الشرق ويجعل الفاصل بين ليبيا وآسيا (بلاد العرب) نهر النيل الذي يوجد فيه المصريون حتى أن النهر عند فيضانه يغمر أنحاءً من ليبيا بمسافة يومين، هيرودوت، الفقرات 8، 15، 17، 19، وعن إنشاء منف انظر، الفقرة (99)

(***) مينا أو مينوس عند الإغريق، ذكره مانيتوس في تاريخه بادئاً به الأسرة الأولى، وقال بأنه هو من بنى مدينة منفيس عند ملتقى الدلتا بمجرى الوادي الضيق، وسميت عند إنشائها انب–حج أي الجدار الأبيض أو القلعة البيضاء، سمير أديب، المرجع نفسه، ص169–170، 809.

موت الملك زوسر، وهو ما يفسر اختفاء آثار خلفائه بالحكم أو تناثرها بالجنوب مع قصر مدة حكمهم التي لم تتجاوز في مجموعها الخمسين عاماً (صالح، 2006م، ص400–401؛ إبراهيم، ص116)، وربما خلال هذه الاضطرابات استطاع الليبيون مد نفوذهم على أقاليم متعددة بشمال الدولة ووسطها، حتى جاء عصر الملك سنفرو في بداية الأسرة الرابعة واستطاع إرجاع الوحدة للبلاد تحت سلطانه بعد حروبٍ عدة، واتخذ أيضاً من منف عاصمة له للدلالة على بسط نفوذه على الشمال والجنوب بتوسطها المسافة بينهما، كما استطاع القضاء على ثورات الجنوب والشرق بتلك الحملات التي قام بها في نفس الفترة (**عبد الحميد، 2009م، ص161**)، ومن المحتمل أن تلك الأعمال جعلته يلقب بالملك العادل نب ماعت(*)، وجعلت فترة حكم خليفته خوفو فترة رخاء واستقرار وبناء وازدهار اقتصادي وعمراني(**)، ومما يدعم الرأي الأخير أن ملوك الأسرة الرابعة كان لهم ميول لإله الشمس رع ولمدينته الأم هليوبوليس(***)، والدليل على ذلك ظهور ثاني الألقاب الملكية زمن هذه الأسرة، الذي يدل على انتمائهم لإله الشمس وهو لقب (سا رع) والذي يعني ابن الشمس، وهو ما يُعد من السياسات المعروفة عن الفراعنة منذ عصر التوحيد وما يليه، والتي تُعتبر من وسائل تدعيم أركان الوحدة بين الشمال والجنوب (**بدوي، ص157–158، 161–162؛ ألدريد، 1992م، ص161–162؛ جريمال، ص88–89**).

ومن أشكال اتصال الليبيين بالأسرة الفرعونية الرابعة وعلاقتهم الوثيقة بها زواج بعض ملوكها من نساء ليبيات، وربما كن من بنات أمراء الليبيين وملوكهم، وهو ما يلاحظ في آثار

(*) من الألقاب التي ارتبطت بسنفرو في الكتابات الأدبية اللاحقة بعد موته بفترات طويلة، بوزنر، ص193.

(**) حكم خوفو في حوالي (2656–2633 ق.م) وهو ابن الفرعون سنفرو وثاني ملوك الأسرة الرابعة، من أشهر فراعنة وادي النيل، وهو صاحب أعظم أهرامات الجيزة المعروف بالهرم الأكبر التي عدت من عجائب الدنيا، ويدل على تقدم كبير ومبكر في فن العمارة والهندسة، وتعتبر أخباره ضئيلة جداً بالنسبة إلى غيره من الملوك والعصور، الموسوعة المصرية، ص229–230.

(***) مدينة أون، وتسمى اليوم عين شمس، وتعتبر أهم مدن الحضارة في وادي النيل، حيث يُعتقد أنها نشأت منذ زمن يسبق تاريخ 4240 ق.م، ورع هو الشمس التي عبدها أهل هذه المدينة منذ عصور ما قبل التاريخ، وقد وحدوه مع الإله أتوم الخالق، وتجعله الأساطير أباً لبعض الآلهة مثل أوزيريس، ويعتبر أكثر الآلهة التي اعتنقها الملوك أو مالوا إليها وربما كان ذلك لاستغلاله سياسياً، بوزنر، ص170–171؛ أديب، ص 447–449، 838.

ونقوش أسرة الفرعون خوفو حيث يظهر بعض أفراد عائلته يحملون ملامح ليبية تعود لقبيلة التمحو(*)، ففي مقبرة الملكة مريس عنخ الثالثة(**) بالجيزة صُوِّرت والدتها (زوجة خوفو) حتب حرس الثانية(***) بهيئة تختلف عنها وعن أولادها الذين مُثلوا معها بنفس اللوحة، حيث جاءت بُشرتها باللون الأبيض الناصع وظهر شعرها باللون الأشقر المزُين بخطوط حمراء أفقية، ويُحلي جبينها خصلةُ قصيرة، ناهيك عن ملابسها التي لا تشبه الزي المصري القديم وتختلف عنه تماماً، فهو يتألف من جلباب أبيض ضيق مثبت بشريطين ملتفين حول الصدر تم ربطهما على الكتف بعقدةٍ بارزة، وهو لباس ليبي لا يرتديه غيرهم من سكان الوادي ، وما يؤكد صلة هذه الأسرة بالتمحو تكرار هذا الأثر في الصفات والملابس داخل رسوم جبانة الجيزة بمقبرة الأمير خوفو خعف (أحد أبناء خوفو الفرعون) حيث رُسمت والدته بزي يُطابق الملابس التي ارتدتها حتب حرس الثانية في قبر مريس عنخ الثالثة(**حسن، ج7، 2000م، ص41–42**)، فربما تزوج خوفو بامرأة ليبية من التمحو وكذلك فعل أبوه، لكسب ودهم وإنهاء معارضتهم عن طريق المصاهرة .

إن مناصرة واهتمام ملوك الأسرة الرابعة لإله الشمس دفع لظهور أسرة جديدة من نسل مدينة الشمس هليوبوليس، وذلك عندما اقترب كهنتها من العرش بأمر الفراعنة أنفسهم حتى انتهى الأمر بظهور أسرة ترجع أصولها إلى تلك المدينة وهي الأسرة الخامسة (**حسن، ج1، 2000م، ص328–329**).

(*) التمحو هي إحدى القبائل الليبية التي ظهرت على مسرح الأحداث بالآثار الفرعونية منذ عصر الأسرة السادسة، لهم بعض الشبه بالتحنو، لكنهم يختلفون عنهم في لون البشرة والشعر وفي بعض الملابس، وكانت بوادر ذكرهم قد ظهرت على نساء من أميرات وزوجات الأسرة الرابعة في نقوشها وآثارها،أديب، ص301.

(**) ابنة الأمير كاوعب أحد أبناء خوفو من زوجته الأميرة حتب حرس الثانية وتحمل مريس عنح الثالثة صفات التمحو وهي العيون الزرقاء والشعر الأشقر، تزوجت من الفرعون خفرع، فخري، 1995م، ص 118.

(***) هي أحدى بنات خوفو، رغم وجود رأي يقول بأنها زوجته، وإبنة الفرعون سنفرو، وهي أيضاً من أصول ليبية تحمل صفات قبيلة التمحو وملابسهم، انظر حول ذلك : جون ولسون، الحضارة المصرية، ترجمة: أحمد فخري، د.ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1955م، ص 177؛ قارن مع، حسين عبد العالي مراجع، المرجع السابق، ص ص 62–63.

العلاقات زمن الأسرتين الخامسة والسادسة:

إن عصر الأسرة الخامسة كان تجسيداً لعصر الكهنة وحكم رجال الدين(*) وخاصة كهنة إله الشمس (رع) الذي اهتم به أغلب ملوك هذه الأسرة وبمدينته الأم هليوبوليس (**ولسون، 1955م، ص163؛ برستد، ص137**)، ولقد كانت مقابر ملوك هذه الأسرة أقل عظمة وضخامة من أسلافهم بالأسرة الرابعة فخري، 1963م، ص241، 246؛ توفيق، ص 126)، ولعل مرجع ذلك إلى تدينهم أو تواضعهم رغم اهتمامهم ببناء معابد الشمس وتزيينها حتى بلغت مرتبة رفيعة في الدقة والجمال (**ألدريد، ص161–162**)، أو لأنهم عانوا من أحوال اقتصادية سيئة ظهرت بوادرها قبل نهاية الأسرة الرابعة (**2680–2560 ق.م، فخري، 1995م، ص101**)، ومن المحتمل أن موارد البلاد المالية أو الاقتصادية لم تكن في أيديهم كاملة لأن في عصرهم، أو حتى قبل ذلك بدأ حكام الأقاليم يستحوذون على نصيب كبير منها، إضافةً إلى الكهنة والمعابد التي أعفيت في مقابل ذلك من الضرائب وخاصة معابد إله الشمس رع (**جريمال، ص96؛ مري،ص53**)، ومن أبرز المظاهر الحضارية من أيام هذه الأسرة ما عرف اصطلاحاً في التاريخ بمتون الأهرام(**) التي نُقشت بالكتابة التصويرية الهيروغليفية(***)، وكانت سجلاً دينياً يُعتبر نتاجاً لعدة أفكار وعقائد دينية متعددة اجتمعت بعد

(*) يعد عصر هذه الأسرة أكبر الفترات رواجاً لعبادة الشمس التي انتشرت في كافة الأقاليم وازداد نفوذ معابدها وكهنتها، وبالطبع مدينة إله الشمس (رع) الأم وهي هليوبوليس، ولسون، ص162–164؛ حسن، ج1، ص328.

(**) تكونت هذه الشعائر الجنائزية السحرية من أناشيد وتعاويذ وأساطير قديمة تحوي (714) فقرة، وجدت أول مرة على جدران ممرات وحجرات الفرعون (أوناس)، ويظن بعض الباحثين أنها تحمل في طياتها عقائد وأحداث قامت في عصور قديمة ربما حتى قبل التوحيد، وتحاكي الوقائع والاضطرابات السياسية بين الشمال والجنوب، وتوجد متون أخرى داخل أهرامات الأسرة السادسة، وهي من الناحية الدينية تتحدث بإسهاب عن حياة الملك أو الفرعون وسعادته في الآخرة، أديب، ص710–711.

(***) هي أول شكل للكتابة في وادي النيل، وهي على هيئة الصور والرسومات، ويرجح اختراعها إلى سنة 3100 ق.م أو إلى ما قبل ذلك بقليل، وهي في بدايتها استخدمت الرسومات والصور للدلالة على الشيء نفسه أو فكرة وليس بمعنى كلمة معينة واستعملت رسومات أو علامات للدلالة على الصفات والأفعال. أديب، ص893–844.

عصور طويلة من الانصهار والتطور، حتى دُونت في زمن ونيس أو وناس آخر ملوك الأسرة الخامسة(****).

أما ما يميز عصر هذه الأسرة وحضارتها ما تعلق بتصوير الليبيين وبعض ملامحهم وصفاتهم التي عُرفوا من خلالها بأسمائهم (**الموسوعة المصرية، د.ت، ص 172**) وكانت علماً عليهم وعلى دورهم وأثرهم بالحضارة الفرعونية وعلاقتهم بسكان الوادي فأضفت شيئاً من التاريخ المفقود من تلك الفترة لليبيين وحضارتهم وحياتهم، وكانت سبباً في إبراز الأثر القديم لهم بوادي النيل وتطورات الحياة السياسة والاجتماعية، وتبلورت تلك الرسومات والنقوش خلال زمن الفرعون ساحورع (2553–2539 ق.م) (*) الذي قام بحملة ضد الليبيين غنم على إثرها أعداداً كبيرةً من المواشي والأسرى (**سليم، عبد اللطيف، 1996م، ص 119**).

وتجدر الإشارة بأن الآثار الفرعونية وخاصة ما تعلق بالحياة السياسية كالتي تعود إلى أيام ساحورع أنها ذات طابع تقليدي(**) اعتاد الفراعنة الاعتزاز به كنصر مؤزر على عدوٍ قديم له أطماع في السلطة ويتميز بروح الانفصال وانعدام الطاعة، وخاصة أن هذه الانتصارات والأسلاب تتكرر في عدة عصور الأمر الذي حدث حرفياً مع آثار ساحورع عندما استعان بها أحد ملوك الأسرة السادسة وهو بيبي الثاني 2246–2151 ق.م (***) الذي جعلها ضمن

(****) عاش على عرشه ما يقارب 40 سنة في رواية مانيتون، أما الآثار فهي تحددها 28 سنة، وهي مدة طويلة إذا ما قورنت بفراعنة الأسرة نفسها، جريمال، ص97؛ ويُرجح أنه على رأس الأسرة السادسة لعدة اعتبارات منها: تناقص الاهتمام بإله الشمس رع وكهنته في عصره واختفاء لقب ابن الشمس، وظهور متون الأهرام، مع وجود أصول غريبة عن البيت الحاكم في دمه والتي يحتمل أنها ترجع لأمه الليبية، مهران، 2008، ص171–173.

(*) ويعني اسمه هبة رع، ولم يتجاوز حكمه اثنتي عشر سنة، وهو ثاني ملوك الأسرة الخامسة، وصاحب الفضل في تشييد المقبرة الملكية لأسرته في (أبي صير) شمال سقارة بقليل، عبدالعزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، هامش رقم (452). وله عدة آثار كان أهمها النقوش المسجلة على جدران القاعة الكبرى أمام معبده الجنائزي في (أبو صير)، سليم، ص104؛ فخري، 1995م، ص133.

(**) لقد شُكِك في مصداقية هذه الحملة وأخبارها، والتي وصفت بأنها ضرب من الصور البلاغية التي شاع استعمالها أكثر منها حقائق تاريخية، جريمال، ص49.

(***) آخر ملوك الأسرة السادسة تولى الحكم صغيراً، استمر حكمه مائة عام كما يذكر مانيتون وبعض قوائم الملوك، أما الآثار فتنفي ذلك، علي، ص577

أعماله وإنجازاته أيضاً (**جاردنر، 1973م، ص75–76**)، الأمر الذي جعل من نقوش ساحورع نفسها تفقد مصداقيتها من جانب الحرب وعدد الغنائم، أو أنها نُسخت عن لوحة قديمة تحاكي انتصاراً أقدم، فليس من المتوقع أن يُرى فرعوناً يعترف بهزيمة أو خسارة أرضٍ تحت سلطته أو خروج ثائر عليه وعصيان طاعته، كما لا يمكن أن يعترف خصم بانتصار عدوه عليه وخاصة إذا كان ملكاً من نسل الآلهة أو من أحفادهم.

كما تنم الدقة في رسم تفاصيل الليبيين التحنو في هذه النقوش من زمن ساحورع عن دراية واحتكاك قوي بين الطرفين حتى أنهم ذكروا أسماءهم فوق صورهم إضافةً إلى نقش أسماء زوجاتهم وأبنائهم، مما يعني أنهم عرفوهم جيداً أو أن حرباً طويلة استمرت بينهما فاشتهر أمير القوم وقائدهم وزوجته وأبناؤه، ومن المحتمل استيطان هؤلاء لإقليم قريب جداً ولعله داخل الوادي نفسه مما جعل الفنان بأمر من سيده يسجل أخبارهم بدقة كبيرة تدل على اتصال قوي وعميق.

ولعل ما يؤكد وجود علاقات سياسية وحربية بين الفراعنة والليبيين ما ذكره أحد الباحثين أن المناظر التي تم تصويرها على جدران معبد ساحورع تتحدث عن وفود رؤساء القبائل الليبية (**عبد الحميد، ص183**)، ولم يوضح كيف وصل إلى هذا الاحتمال خاصةً مع وجود من يرى بأنها حملة على الليبيين بغرب الوادي عاد منها جيش الملك بأسلاب وغنائم وأسرى كثر (**فخري، 1995م، ص134–135**)، رغم تأكيد الباحثين على أن منطقة غرب الوادي والواحات لم يتم ضمها إلى سلطة الفراعنة إلا أيام الدولة الحديثة (**عبد العليم، 1973م، ص15؛ بايتس، ص60**) زمن الفرعون رعمسيس الثالث (1198–1166 ق.م(*))، وهناك من يفسر أعداد الأسرى والغنائم بأنها حصيلة لأعداد المؤيدين للملك أو الداخلين في طاعته من الليبيين مع ضريبته عليهم أو الجزية المفروضة عليهم لإثبات ولائهم وتبعيتهم له (مراجع، ص58)، والرأي الأخير فيه بعض الواقعية خاصة أنه لم يثبت أن الفراعنة تركوا في مناطق

(*) أول ملوك الأسرة العشرين حكم أكثر من ثلاثين عاماً، تميز عهده بالقوة والرخاء، إلا أنه عندما كبرت سنه عادت البلاد إلى الضعف، فخري، 1995، ص389؛ توفيق، ص328.

الليبيين وأوطانهم القديمة خلال تلك الحقبة حكاماً أو حاميات تفرض سلطتهم فيها وتؤكد تبعيتها لدولتهم، كما يلاحظ في النوبة أو سينا وغيرها(**)، وليس من المستبعد أن الأرقام الموجودة بالنقش هي حصر اعتيادي درج الفراعنة عليه منذ عصر الأسرة الثانية كل عامين تُجمع على إثره ضرائب الدولة ونصيب الملك منها (**يويوت، 1966م، ص31**) وربما كانت أكبر موارد خزينة الدولة، ولكن لو اعتبرنا أرقام الآثار حقيقية ألا يعني ذلك ثراء موطن الليبيين بالمراعي والأشجار وكثرة السكان؟ وما يفسر إغارتهم على الوادي إذا كان ذلك صحيحاً باعتبارهم قادمين من خارجه؟ أم أنهم كانوا داخل أقاليم الوادي ولهم أطماع ومآرب أخرى؟

إن حجم الموارد التي تتحدث عنها الآثار الفرعونية لليبيين وموطنهم الزراعية والحيوانية (**مهران، ج2، ص250؛ الأثرم، 1998م، ص 29–31**) تنم على غنى ورخاء اقتصادي في زمانها وتدعو إلى الاستغراب فقومٌ هذه مواردهم وأملاكهم لماذا جاؤوا للوادي إذاً؟

من المحتمل إلى حدٍ كبيرٍ أن ذلك المكان الذي استقر فيه الليبيون الذي عرف باسمهم أرض التحنو كان غنياً بالمراعي والأشجار حتى تتكاثر فيه الحيوانات ويستقر به الإنسان بأعداد كبيرة وتجعل الحيرة في اكتشافه أكبر لضبابية الموقع داخل الآثار الفرعونية فهي جعلت منهم أحد فروع العالم الأربعة في تقسيمهم(*) قبل أن يجعله الإغريق قارة كاملة تمتد من وادي النيل غرباً حتى المحيط الأطلنطي (**البرغوثي، 1971م، ص21–22**)، مما يدل على أن جميع الأراضي التي تلي الوادي غرباً موطناً للجنس الليبي دون منازع، ولعلهم –كما سلف – سكنوا المناطق الغربية من الدلتا أيضاً وهو ما يفسر الموارد الحيوانية والمراعي التي عاشت عليها وأشجار الزيتون التي توفرت فيه(**)، مع استيطانهم وانتشارهم جنوباً بالواحات الملاصقة للوادي والبعيدة عنه والتي

(**) تكررت حملات الأسرة الخامسة على قبائل التحنو حتى في عصر الفرعون ني أوسر رع من خلفاء ساحورع (2516–2484 ق.م)، وهو بتلك الرسومات والنقوش كان ناسخاً لأعمال وإنجازات ساحورع ويشك في مصداقيتها، فخري، 1995، ص139.

(*) ظهر ذلك في أساطير الخلق بالديانة القديمة لوادي النيل، وما ارتبط بإله الشمس رع وكيفية خلقه الأجناس الرئيسية الأربعة، التي كان الليبيون التمحو من ضمنهم. بدج، 1994م، ص346؛ خشيم، 1990م، ص41.

(**) عرف على قبيلة التحنو بالآثار الفرعونية أنها غنية بزيت الزيتون الذي أطلقوا عليه – أي الفراعنة – في آثارهم اسم زيت التحنو، صالح، 2006م، ص271–272.

لم تدخل في سلطة الفراعنة إلا أيام الدولة الحديثة (**بايتس، ص60؛ عبد العليم، ص15**)، فهل كانت هذه الحروب التي تتحدث عنها الآثار هي محاولات للفراعنة الأقوياء لمد نفوذهم على بعض الواحات؟ أم إنها كانت ضمن الصراعات الداخلية على السلطة بين أقاليم الوادي؟

يلاحظ منذ بداية التاريخ الفرعوني وما قبله أن الليبيين كانت لهم علاقة ودور في أحداثه السياسية منذ ظهور دعاة الوحدة وما صاحبها من أحداث(*)، وربما لم تكن آثار ساحورع وأحداث عصره مع الليبيين سوى شكل آخر من مراحل الصراع السياسي داخل وادي النيل والذي كان يحدث أحياناً حتى بموت ملك ونهاية عصره وتعدد أبنائه وإخوته المطالبين بالعرش(**)، وخاصةً أن الفراعنة الأسرة الخامسة كانوا متساهلين مع حكام الأقاليم وكهنة المعابد حتى أن ثروات بعض الرجال زادت وظهرت الطبقة الوسطى وربما بدأت منافسة حكام الأقاليم للفراعنة، فلربما كان الليبيون من بينهم فكانت فرصة لهم لتحقيق مآرب أخرى (**جريمال، ص93–94، 96**)، فليس من الغريب الاعتقاد بأن تلك الأحداث المذكورة في آثار ساحورع تدخل في نطاق هذه السياسات الفرعونية ونتائجها لا أكثر.

ولذلك اعتقد بعض الباحثين بأن حملات أو ضربات الفرعون ساحورع على الليبيين كانت موجعة، فأصبح خطرهم خافتاً ويكاد يكون منعدماً منذ عصره الذي اكتملت فيه طاعتهم وولاؤهم لسلطة الوادي وفراعنته، بيد أن هناك من يرى أن حالة السلم أو المهادنة التي سادت العلاقة بين الليبيين وسلطة الوادي الحاكمة ترجع إلى وصول فرعون جديد إلى السلطة

(*) ارتبطت الآثار والمصادر التي تتحدث عن مراحل الوحدة السياسية بالوادي بدورٍ ليبي ظهر ضمن عناصرها الأساسية وكأنها أحد أطراف الصراع في سبيل الوحدة، وهو ما ذكرته مصادر تلك المرحلة مثل سكين جبل العركي ولوحة الصيد ولوحة الأسد والعقبان ولوحة التحنو ولوحة التوحيد وغيرها، صالح، 2006م، ص 281–282 ؛ سليم، عبد اللطيف، 2010م، ص 89، 199–201 ؛ امراجع، ص 42؛ سرار، ص 17–36.

(**) لم تخلُ أغلب الأسر من مثل هذه الصراعات على السلطة والتي يرجعها العلماء إلى نفس الأسباب من تداخل عنصر جديد في الحكم أو كثرة الأبناء من أمهات مختلفة، مع عوامل أخرى كالصراعات الدينية وميول بعض الملوك لآلهة دون غيرها وهو أمر ارتبط بوحدة الأرضين وسلامة الدولة، ومن تلك الأحداث المتعلقة بالوصول إلى الحكم والصراع حول ذلك المنصب ما حدث بين أبناء الفرعون خوفو ووصول جدف رع أحد أبنائه من أم ثانوية وليبية الأصل وصراعه على العرش مع إخوته، مهران، 2002م، ص102–106، 142–145.

أظهر لهم سياسة تسامح ونظر لهم كمواطنين عاديين داخل دولته ودخلت أقاليمهم تحت حكمه ومن المحتمل إنه وصل إلى الحكم بمساندتهم (**صالح، 2006م، ص460، 468–469؛ عبد العالي،1989م، ص62–63**) وهو الملك أوناس أو ونيس (2341–2311 ق.م، علي، ص565) الذي له بالليبيين صلة القربى أيضاً من جهة أمه الأميرة الليبية التي يرجع أصلها إلى الفيوم(*)، وأنه يعود في نسبه إلى الأسرة الرابعة وليس الأسرة الخامسة (**صالح، 2006م، ص486**)، وما يعزز رجاحة هذا الرأي وجود إشارات على حدوث صراع بين أفراد الأسرة الرابعة نتج عنه خلع الملك جدف رع(**)(**2528–2520ق.م، علي، ص 538**) الذي كان ابناً لزوجة ثانوية من أصل ليبي وهي حتب حورس الثانية سالفة الذكر، وتولى العرش مكانه أخوه خفرع (**رابع ملوك الأسرة الرابعة 2520–2494 ق.م، فخري،1995م، ص539**) والذي كانت زوجته مريس عنخ (سالفة الذكر) لها أصول ليبية أيضاً من جهة أمها حتب حورس الثانية التي ظهرت في بعض نقوش الأسرة الرابعة بملامح وصفات ليبية لقبيلة التمحو، حتى أن بعض الباحثين رأى بوجود عنصر ليبي في الأسرة الرابعة الفرعونية (فخري، 1995م، ص117–118)، والتي كان آخر فراعنتها امرأة شقراء (**ولسون، 1955م، ص117**)، ولعل هذا التداخل لليبيين في البيت الحاكم الفرعوني نتج منذ أن استطاع الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة السيطرة على واحة الفيوم وضمها لسلطة الوادي، أو أنه جلب منها أسرى كانت من بينهم نساء ليبيات احتفظ بهن في قصره وتزوج بإحداهن أو زوجها لأحد

(*) لم يستطع العلماء تحديد مواقع القبائل الليبية في غرب الوادي بشكل دقيق ولكنهم أوردوا عدة آراء كان من بينها استقرار بعضهم في واحة الفيوم استناداً إلى بعض الأدلة الواردة في نقوش الفرعون ساحورع والتي ذكرت أن الليبيين كان من بين معبوداتهم في بلاد التحنو الإله سبك وهو التمساح والذي انتشرت عبادته بشكل كبير في واحة الفيوم ومنذ زمن يسبق حملاته عليهم، دراز، 2000م، ص30–31.

(**) جدف رع، دار جدل حول موقعه الزمني في ترتيب فراعنة الأسرة الرابعة، واستمر حكمه ثماني سنوات، وله هرم لم يكتمل بناؤه في منطقة (أبورواش) التي تقع على مسافة سبعة كيلومترات شمال الجيزة، ويعزوا الباحثين الاضطرابات التي حدثت في زمنه إلى أصله الليبي، أديب، ص317؛ قارن، جريمال، ص88–89.

أبنائه وبذلك دخل العنصر الليبي في جينات الفراعنة (**فخري، 1995م، ص118**)، ولعله ما يفسر استتباب الأمور حينئذ بين الليبيين والفراعنة.

ومن المحتمل أن خلع الملوك أو معارضتهم لأنهم من أصول ليبية أو غيرها لم يكن وارداً، فلم يعتبر المصريون هؤلاء أجانب يحكمونهم؛ ذلك لأنهم أولاً من نسل الفراعنة، وثانياً كان بالأحرى اعتبار شيشنق(*) أو غيره أجنبياً، والذي يتضح بشكل جلي أصوله الليبية رغم تكوينه لأسرة حاكمة هي الثانية والعشرين داخل وادي النيل، والمرجح أن تلك الصراعات وخلع الملوك والنزاع على الحكم(**) أمر بديهي لحب الإنسان للسلطة ناهيك إذا كان وراءه حاشية وأعوان يزيدون له في رغبتها لمصالحهم ومصالح عشيرتهم، وهو أمر يحدث في كافة العصور وفي أغلب الأمم، ألم يتصارع أبناء الإمبراطور الروماني سيبتيميوس سيفيروس على حكم الإمبراطورية الرومانية بعد موته، كما تنازع على الحكم أبناء الرشيد بعد وفاته؟ وهل كان لأحدهم فضل على أخيه؟ ولا يستبعد حدوث ذلك في مملكة وثنية تتعدد فيها زوجات الملوك ومحضياتهم فيتعدد أبناؤهم زيادة على طمع النساء في الحكم أيضاً.

هذا وقد صورت نقوش الملك أوناس وآثاره علاقته بفريق من الليبيين، فبداية من نصوص الأهرام والتي يتخذ فيها ألقاباً تعود إلى أصل ليبيٍّ مثل سبك العظيم(***)وسيد باش(****)فأما

(*) شيشنق، يحمل هذا الاسم الكثير من ملوك وأمراء العصر الليبي في وادي النيل، والمقصود هنا هو شيشنق أو شاشانق الأول صاحب المجد التاريخي خلال عصره كفرعون لوادي النيل بين عامي (950-929 ق.م) وهو حفيد شيشنق الأكبر رئيس قبيلة الماشواش أو المشوش، ويعد شاشانق الأول صاحب الفضل في إعادة أمجاد الدولة الحديثة في التوسع الخارجي والقوة الحربية.، بوزنر ، ص197.

(**) تكرر الصراع على السلطة في التاريخ الفرعوني خلال عدة عصور وأسر كالذي حدث بين أبناء الفرعون خوفو بسبب تعددهم نتيجة لكثرة زوجاته، وأيضاً وقع في عصر الأسرة الثامنة عشر بين أبناء تحتمس الأول فخري، 1995م، ص117-120؛ برستد، ص 267-269.

(***) سبك العظيم هو إله في شكل تمساح كان معبوداً قديما في وادي النيل، وكانت الفيوم أهم مركز لعبادته مع شهرته بالدلتا وأقاليمها، بوزنر، ص112-113.

(****) باش: وهي موقع داخل أرض التحنو. حسين عبدالعالي مراجع، المرجع السابق، ص63. بينما يجعلها علي فهمي خشيم إلهة ليبية انتشرت في أغلب مناطق الصحراء الليبية وبين سكان وادي النيل لاحقاً ويجعلها سيدةً للرماد والصحراء، خشيم، 271، 274-275، 295 .

سبك فهو معبود من آلهة الفيوم التي يرجح أنها من مواطن الليبيين، وأما باش فهي إحدى مناطق أو أقاليم التحنو الليبيين بشهادة آثار الأسرة الخامسة نفسها (**حسن، ج7، ص32**)، مما يزيد من فرضية استعانته بالليبيين لاسترجاع عرشه المسلوب، والذين نصَّبوه سيّداً عليهم أولاً ثم تحركوا بقيادته لتنصيبه على عرش الفراعنة بعدما بذلوا جهوداً كبيرةً وشاقةً في سبيل ذلك، حتى إنه خلدها بنقشها على جدران الطريق الصاعد المؤدي إلى هرمه، حيث صُوِّرت على هيئة رجال متعبين عظامهم بارزة (صالح، ص469)، في وجود من يرى بأن هذه الصور(*) تتحدث عن مجاعة أصابت أحد أقاليم الوادي ولشدتها سجلها الملك في آثاره (سليم، ص107) ، لكن لم يكن حري به استخدامها في أغراض أخرى لتقديسه وإضفاء صيغة الأصل الإلهي كما فعل زوسر بالمجاعة التي حدثت في أيامه (**صالح، 1990م، ص108–109**)؟ وإن عُد ذلك صحيحاً لماذا لم يذكرها في متون أهرامه الدينية؟

يرى بعض المؤرخين أن أشكال الرجال تُقربهم بهذا الأثر إلى الملامح الليبية، وأن هيئاتهم الهزيلة الجائعة تعبر عن تعب ومشقة في عملهم مع الملك في طريق استرداد السلطة (**صالح، 2006م، ص 469؛ مراجع، ص 63–64**)، وحتى لو وجدت مجاعة في حينها فهي ربما تحدث في بعض المناطق الليبية عند الواحات وتحاكي طريقة وصولهم إلى الوادي، وهي متوقعة الحدوث في الواحات الفقيرة؛ لأنها وقعت داخل أراضي النيل أيام الفرعون زوسر فأرادوا تسجيل هذا الحدث الجلل مع كيفية نزولهم للاستقرار بالوادي الخصيب.

وزيادةً على ما سبق فإن عصر الأسرة السادسة (**2420–2280ق.م، فخري، 1995م، ص148**) شهد اتصالاً بين الليبيين ووادي النيل سواءً مع سكانه أو سلطته الحاكمة، حيث يتحدث المصدر الوحيد للحياة العسكرية للدولة الفرعونية القديمة على أن قائد

(*) وقد اعترف بعض المؤرخين بأن أشكال هؤلاء الرجال أصحاب المجاعة هم أجانب، فخري،1995م، ص143؛ علي، ص568.

الجيش أوني(**) قام بتجنيد مجموعة من التمحو ضمن كتائب وفرق جيشه الذي حارب به سكان الرمال والأسيويين زمن الفرعون بيي الأول 2420–2377 ق.م(***)، ولقد وردت هذه المعلومات في نقوش مقبرة أوني التي سرد فيها تاريخ حياته وأعماله، يقول النص ما ترجمته " حين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الآسيويين والساكنين على الرمال جمع جلالته جيشاً من عشرات الآلاف الكثيرة من كل أرض مصر العليا، من الفنتين في الجنوب إلى مزينييه في الشمال، من كيمة السفلى من جانبي البيت في تمامها، من سدجر، ومن خن سجرو، من نوبي أرثي ومن نوبي مدجا ومن نوبي يام ومن نوبي واواي ومن نوبي كااو ومن أرض التمحو، وأرسلني جلالته على رأس هذا الجيش(*)" (**جاردنر، ص114–116**)، ويُفهم من ذلك أن رجال قبيلة التمحو قد اشتركوا في تلك الحروب ضد أعداء الوادي الآسيويين مما يوحي إلى تحليلات كثيرة منها أنهم كانوا جنداً مرتزقة في جيش فرعون أو أنهم دافعوا عن أرضهم التي استقروا فيها منذ زمن أو ربما ربطتهم بهذه الأسرة وشائج قربى دفعتهم للاشتراك معهم في تلك الحروب، ومن جهة نظر سياسية ربما دخل الطرفان في اتفاق يفرض عليهما الدفاع المشترك على مصالحهما وهو ما يمكن ترجيحه بالنظر إلى الشواهد التالية:

لقد نفى بعض الباحثين وجود ظاهرة الارتزاق خلال تلك العصور وهو ما ينفي ذلك على جند التمحو (**جاردنر، ص 288**)، كما يمكن اعتبار التمحو من سكان الوادي انطلاقاً مما سلف في الأسر السابقة وأيضاً تلميحات الآثار ودلائلها التي عُرفت عند العلماء بمخلفات المجموعة C، التي تثبت استقرار التمحو على الضفة الغربية لوادي النيل من الشلال

(**) هو رجل ذو نشأة وضيعة، بدأ في وظائف الدولة بمنصبٍ صغير أيام الفرعون تتي أول فراعنة الأسرة السادسة، ثم عين سميراً ومقرباً زمن الفرعون بيي الأول، وصحب ذلك مكانة دينية مرموقة، ثم عين قاضياً، وتلاهى بقيادة الجيش زمن الفرعون الأخير، جاردنر، ص 113–116.

(***) هو ثالث ملوك الأسرة الفرعونية السادسة، أديب، ص 242–243؛ فحري، 1995م، ص 148–149.

(*) تعني مزينييه مقاطعةً في أقصى شمال الوجه القبلي وتحمل رقم 22 ، وقصد بجانبي البيت طرفي الدلتا، جاردنر، ص 114–116.

الثالث حتى الفيوم(**)، مما يُرجح الرأي الثاني وهو اشتراكهم في الجيش بمحض إرادتهم أو لوجود مصالح لهم، خاصةً أن تركيبة الجيش الفرعوني خلال تلك الفترة كان لها شكل إقطاعي بحيث لم يكن للملوك جند نظاميون ما عدا حرسهم الخاص فكان الاعتماد في الحروب على جند الأقاليم والمعابد التي يستعين بها الفراعنة ولكن تحت قياداتهم المحلية(**بوزنر، ص125–126؛ مهران، 2008م، ص194؛ برستد، ص91؛ يويوت، ص51؛ سرار، ص160–164**).

ولا يمكن استبعاد كل تلك التفسيرات إضافةً إلى التحالف والاتفاق خاصةً أنها سياسةٌ معروفة عند الليبيين في العصور القديمة عندما تحالفوا فيما بينهم أو مع شعوب البحر للهجوم على وادي النيل رغم البعد الزمني بين الحدثين (حسن، ج7، ص86)، وبالنظر إلى شاهد آخر يعود إلى نفس الفترة من الأسرة السادسة ربما اتضح أمر هذا التحالف، حيث يقول حرخوف(*)حاكم الجنوب ومشرف البعثات التجارية والعسكرية زمن الفرعون مرن رع(**) ابن بيي الأول وشريكه في الحكم ما ترجمته : " لقد خرجت من الإقليم الثيني عن طريق الواحة وقابلت حاكم يام متجهاً نحو بلاد تمحو فهزمته إلى الحد الذي جعله يرجو جميع الآله من أجل الملك ... " (**جاردنر، ص114–115**) ومن ذلك يتضح أن حرخوف وبأمر من الملك ذهب إلى حماية التمحو وأراضيهم من هجوم جيش يام عليها، وهو ما لا يُفسر إلا باتفاق الطرفين على حماية بعضهما من أي غزو .

وبذلك يتضح أن علاقة الليبيين بوادي النيل كان لها جذورها القوية التي فرضتها عدة عوامل كانت أقوى من أي حاجز مادي أو معنوي يمنع اشتراك الليبيين في نواحٍ عدة من حياة

(**) هي مجموعة من المخلفات الأثرية التي تم تتبعها في طريق هجرة التمحو الليبيين نحو وادي النيل من الجنوب إلى الشمال عبوراً بدارفور والواحات ثم النوبة وصولاً إلى شمال الوادي عند الفيوم، و تشمل أنواع الفخار الليبي والقبور وطرق الدفن والجماجم والفكوك البشرية مع بعض الأسلحة والملابس وغير ذلك كثير من هذه المخلفات التي تؤكد على أصلها الليبي، بايتس، ص 235–242.

(*) وينطقه البعض خوفو حر، قام بأربعة حملات يغلب على الظن أنها لتأمين طرق القوافل التجارية مع أفريقيا جنوب وادي النيل، والإشراف على وصولها، والتفاوض مع الشعوب التي تمر من أراضيها تلك التجارة، أديب، ص 369–370.

(**) تولى السلطة صغيراً، استمر حكمه عشر سنوات، في زمنه تولى أوني سالف الذكر منصب حاكم الوجه القبلي، توفي هذا الفرعون صغيراً ودفن بسقارة، أديب، ص 731.

وادي النيل وخاصة الاجتماعية والسياسية؛ ذلك لأن غياب الحواجز السياسية والإدارية جعلت الكثير من الليبيين يستقرون بالوادي ويؤثرون في حياته إلى درجة كبيرة تؤكدها أخبارهم الواردة بالآثار الفرعونية ومخلفاتها الحضارية التي تدل فيما تدل عليه أن لليبيين دور قوي في حياة وادي النيل منذ الفترات الأولى من فجر التاريخ (**مهران، 2011م، ص 43–45؛ رزقانة، 1948م، ص247–248؛ مري، ص4؛ كروفت، ص24**) وحتى ظهور الدولة الموحدة والأسرات الحاكمة التي أثراها الليبيون بجنسهم أو بممتلكاتهم المعنوية والمادية التي اغتنمها بعض الفراعنة خلال مراحل التوحيد وتوطيد أركان الدولة وفرض سلطانها على مواطن الليبيين في الدلتا والواحات بالصحراء الليبية، ولا أدل على الأثر الليبي في وادي النيل من انتشار الآلهة والمعتقدات الدينية الليبية القديمة(*) داخل أقاليم الوادي بأراضيه والتي أصبحت في عصور لاحقة من الآلهة الرئيسية لهذه البلاد، هذا ولم تكن إماءات الليبيين السياسية أقل من الأثر الديني في وادي النيل، فنجدهم مشتركين في عناصر الحكم ورجاله الذين كانت أمهاتهم ليبيات أو معارضتهم للحكم والثورة عليه في بعض الأوقات مما دفع الفراعنة إلى استمالتهم بما لهم من ثقل وتأثير داخل الدولة وأراضيها.

(*) يذكر على فهمي خشيم الكثير من الآلهة والمعبودات الليبية القديمة التي انتشرت طقوسها وعبادتها في وادي النيل منذ عصور مبكرة وهو أمر استمر عبر تطور تاريخي خلال الدول الفرعونية المختلفة، وأن الآلهة التي لاقت رواجاً بين الناس في وادي النيل كانت ذات أصول ليبية، ويذكر أمثلة كثيرة على ذلك تُدلل وتؤكد آراءه وأراء غيره من العلماء الذين استشهد ببحوثهم وآرائهم التي توصلوا إليها والتي تصب في نفس الاتجاه والاعتقاد، خشيم، ص269–278.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1- هيرودوت، الكتاب الثاني عن مصر، ترجمة: محمد صقر خفاجة، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1987م.

ثانياً: المراجع العربية :

1- إبراهيم أحمد رزقانة، الحضارات المصرية في فجر التاريخ، ط1، المطبعة النموذجية، الإسكندرية، مصر، 1948م.

2- أحمد عبدالحليم دراز، مصر وليبيا (فيما بين القرن السابع والرابع ق.م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. 2000م

3- أحمد فخري، مصر الفرعونية، ط8، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1995م.

4- أحمد فخري، الأهرامات المصرية، ترجمة: أحمد فخري، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1963م.

5- أحمد بدوي، في موكب الشمس، ج1، في تاريخ مصر الفرعونية (من فجره الصادق حتى آخر الضحى)، ط2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1955م.

6- أحمد أمين سليم، في تاريخ الشرق الأدنى القديمة (مصر وسوريا القديمة)، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2000م.

7- أحمد أمين سليم، سوزان عباس عبداللطيف، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم، الكتاب الثاني، مصر في عصر الأسرتين الأولى والثانية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2010م.

8- أحمد أمين سليم، سوزان عباس عبداللطيف، مصر الفرعونية (معالم التاريخ السياسي)، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1996م.

9- أنديلا مونت ميدوكر فت، هبة النيل (تاريخ مصر القديمة)، ترجمة: على فخري، د.ط، مكتبة الإيمان، القاهرة، مصر، د.ت.

10- جون ولسون، الحضارة المصرية، ترجمة: أحمد فخري، د.ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1955م.

11- جيمس هنري برستد، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسي، ترجمة: حسن كمال، د.ط، مكتبة الأسرة والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1999م.

12- جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة: سعد زهران، ط1، مؤسسة سجل العرب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1966م.

13- جان فيركوتير، مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاني، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1993م.

14- جورج بوزنر، وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: أمين سلامة، ط2، مكتبة الأسرة والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1996م.

15- حسين عبد العالي مراجع، العلاقات الليبية الفرعونية، (منذ عصر ما قبل الأسرات وحتى حكم الليبيين لمصر)، ط1، دار أماني للطباعة والنشر والتوزيع، طرطوس، سوريا، 1989م.

16- رجب عبدالحميد الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، ط3، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1998م.

17- رمضان عبده علي، تاريخ مصر القديم، ج1، د.ط، دار نهضة الشرق، القاهرة، مصر، 2001م.

18- زكريا رجب عبدالحميد، في التاريخ المصري القديم، ج1، منذ فجر التاريخ وحتى بداية الدولة الحديثة، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2009م.

19- سير آلن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل إبراهيم، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1973م.

20- سيريل الدريد، الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة: مختار السويفي، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1992م.

21- سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000م.

22- سليم حسن، مصر القديمة، ج1، في عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية العهد الأهناسي، د.ط، مكتبة الأسرة وشركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2001م.

23- سليم حسن، مصر القديمة، ج7، عصر مرنبتاج ورعمسيس الثالث ولمحة في تاريخ لوبية، د.ط، مكتبة الأسرة وشركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2000م.

24- سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، د.ط، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1990م.

25- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج2، حضارة وادي النيل وبعض الحضارات القديمة (بلاد فارس، الإغريق، الرومان)، ط1، دار الوراق للنشر المحدودة، بيروت، لبنان، 2011م.

26- عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج1، مصر القديمة، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1990م.

27- عبدالعزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ج1، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 2006م.

28- عبداللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم (منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي)، ط1، دار صاور، بيروت، لبنان، 1971م.

29- علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، ج1، دار الأفاق الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1990م.

30- محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، الكتاب الثاني، مصر، ج2، منذ قيام الملكية حتى قيام الدولة الحديثة، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002م.

31- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2011م.

32- محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، الكتاب الخامس، الحضارة المصرية القديمة، ج2، الحياة السياسية والعسكرية والقضائية والدينية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2008م.

33- مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر، ترجمة: ترجمة: محرم كمال، د.ط، لجنة البيان العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1957م.

34- مصطفى كمال عبدالعليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، د.ط، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، ليبيا، 1973م.

35- ناصر الأنصاري، موسوعة حكام مصر (من الفراعنة إلى اليوم)، ط4، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1991م.

36- نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ج1، مصر، الكتاب الأول، ط2، مطبعة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر، 1957م.

37- مجموعة من الباحثين، الموسوعة المصرية، المجلد الأول، ج1، تاريخ مصر القديمة وآثارها، د.ط، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، د.ت.

38- نيقولا جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاني، ط2، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1993م.

39- والترب. امري، مصر في العصر العتيق (الأسرتان الأولى والثانية)، ترجمة: راشد محمد نوير، محمد علي كمال، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، 1967م.

40- والاس بدج، آلهة المصريين، ج1، ترجمة: محمد حسين يونس، د.ط، مكتبة مديولي، القاهرة، 1994م.